التفاعل المنطقي بين النظام الصوتي و الدرس النحوي في القرآن الكريم

د. عبد القادر بن فطة
جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر - الجزائر

الملخص:

اهتّم العلماء بلغة القرآن لما فيها من وقع سمعي وأثر صوتي في تحسين اللفظ وتأكيد المعنى، فهي تعطي النص تماسكا وقوّة. وجدوا فيها وسيلة لتأصيل النظام اللغوي خاصة التناسق المنطقي بين مستوياته ومنها الصوتي و النحوي الذي يرد في النص لدوافع سياقية وللتنويع في أساليب التعبير،زاخرا بالمعاني النفسية يحمل أسرارا جمالية .إنّه من أعمق الظواهر اللغوية في النص القرآني يؤدي دورا لغويا متميزا ، له تأثير واضح في إسقاط الزيادة، يحقّق الانسجام الذي يستريح له ذوق المتلقي. فتفاعل المستويين يختلف من مقام إلى آخر ويخضع لطبيعة الأغراض، ويتّسم بطابع التحدّي المثير للعرب، وتكمن أهميته في التعبير عن الموضوع بأسلوب معجز.وعليه يمكن طرح السؤال التالي:ما هي طبيعة هذا التفاعل المنطقي بين هذين الحقلين؟

الكلمات المفتاحية: التفاعل المنطقي،النظام الصوتي ، الدرس النحوي، الإعجاز اللغوي.

Abstract

Scholars are interested in the language of Koran because of its acoustic effect and phonetic impact to improve articulation and confirm meaning, it gives text cohesion and strength. They found in it a way to establish the origin of the linguistic system especially the logical coordination between its levels, including the phonetic and grammatical ones which are set forth in the text for contextual and methods' expression variation, flowing with psychological senses and carrying aesthetic secrets. They are among the deeper linguistic phenomena in Koran, perform a distinct linguistic role and have a clear influence in dropping addition and making harmony that comforts the recipient. The interaction of the two levels varies from one context to another, and is subjected to the nature of purposes. Besides, it is characterized by the attribute of challenge that excites the Arabs, with its importance in the expression of the subject in a wondrous manner.

Keywords: the logical interaction, the vocal system, the grammatical study, the linguistic inimitability.

المقال:

إنّ لغة القرآن بدأت تفرض نفسها حين اقترب العلماء من القرآن الكريم، وأدركوا إعجازه.فقد استخلصوا كمّا هائلا من مظاهره اللغوية، فقرأها كلّ حسب تخصصه بدءا بالخليل،

المنارة للاستشارات

وتوصّلوا إلى أهميتها في التفريق بين صنوف الكلام.وقد استثمرها القراء والنحاة في تعزيز مذهبهم دعّموا المستويات اللغوية خاصة الصوتي والنحوي،فاستبانوا خصائصهما ما جعل أهل اللغة يقتنعون بأنّ الصوت والنحو ليسا من الموروث الجاهلي لأنّ القرآن انفرد بنظام الصوتي بديع وصيغ النحوية متميّزة، فبدءوا بدراسة التفرّد الذي تميّز به التعبير القرآني، ففتحوا المجال لغيرهم للبحث فيه. وكانت النتيجة التي خلصوا إليها أنّ هناك تفاعلا منطقيا بين الصوت والنحو ويقصد بهذا التفاعل التأثير المتبادل بين العلمين ، لكل منها خصائص وتراكيب وصفات مفيدة . ونتيجة للاتصال المباشر والتأثير المتبادل بينهما يتم الحصول على ناتج للتفاعل يمثل مركباً له من الخصائص والسمات ما يجعله مختلفاً عن العناصر المتفاعلة.منها الاتساق الداخلي للأفكار فيما بينها وعدم تعارضها ، وذلك عن طريق التحليل فينتقل من الفكرة الكلية إلى الأفكار الفرعية في نمط محكم ،ثمّ التركيب ويكون بتجميع أجزاء الفكرة في تنظيم جديد ذي معنى يدرك العلاقات بين جوانب الموضوع ،وأنه قادر على تدعيم الأفكار ، عن طريق الأدلة والبراهين المتاحة (إنّ النحو الذي يعنى بدراسة التركيب لابد أن يستند إلى التأليف الصوتي) 1.

أمّا حديثا فالدراسات وقفت عند هذه القضية ولم يمنع أهل اللغة من العودة إلى التراث لقراءته ووعي مضمونه كصبحي صالح ومحمد حماسة الذين اقتنعوا بأنّ البحث الصوتي والنحوي عند السابقين قد نشأ في ظل القرآن الكريم وحذوا حذو القدامى متعصبين للأصول اللغوية القديمة انطلاقا من النص القرآني، وما أنتجته قرائح العرب فعملوا على مقاربة المستويين.وبالمقابل هناك من آثر ما وصل إليه الغرب في دراساتهم اللغوية فكانت قراءتهم لهذه المسألة بمفاتيح غربية معاصرة كتمام حسان وإبراهيم أنيس متأثرين بعلمائهم من أمثال دي سوسور وشومسكي .

إنّ الحديث على مسألة الصوت و النحو هو حديث عن درسين لغويين الذي يلزم الاشتغال على النص القرآني باحثين عن صور تساوقهما وتلاحمها؛ أي تلك السبل التي تكسب النص قيمة جمالية وتركيبية تستميل ذوق المتلقي وتجعله يتجاوب مع النص.

علاقة الصوت بالنحو

القرآن الكريم علم و بيان شكّل بؤرة اهتمام العلماء المسلمين، – كلٌ في مجال اهتمامه – بحثاً وتأمّلاً. فظهرت نتيجة ذلك علومٌ كثيرةٌ، ارتبطت بالقرآن الكريم كعلوم القرآن، وعلوم اللغة.

كل علم من هذه العلوم ركّز على جانب معيّن من جوانب هذا الكتاب العظيم،فالبلاغة تهتمّ ببيان الذوق و سحر التعبير الوارد فيه،و الصرف يبين عن تنوع هيئة الكلمة، والتفسير يهتمّ بإظهار معانيه.

ولكنّ العلم الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن، ووضع لأجله، قاصرا طرفه عليه، علم الأصوات (كانت الفرصة مواتية لرجال القراءة و الإقراء، فجددوا و اجتهدوا في دراسة الأصوات

المنارة للاستشارات

بتجميع ما تناثر من أفكار سابقيهم من أهل الصناعة، بالإضافة إليها و التوسيع في جوانبها، حتى استقام لهم بناء متكامل في الدرس الصوتي المكرس في الأساس في خدمة القرآن)2

تحسين القراءة ، وذلك بإعطاء كلّ جملة نصيبها من السياق ،وكلّ كملة حقّها في النطق،وكلّ حرف من حروفه مايستحقّه من مخرجه وصفته اللازمة له.

لقد مثّل هذا العلم وصفاً دقيقاً لتلك الأحكام والقواعد التي يجب اتباعها عند قراءة هذا النص القرآني،وغيرها من الأحكام المتعلّقة بأصوات القرآن الكريم وحروفه، هذه الأحكام والقواعد تصف لنا كيف نقرأ كتاب ربنا كما أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكما قرأه صلى الله عليه وسلم على صحابته الكرام، وكما أقرأه أصحابه الكرام لتابعيهم إلى أن وصل إلينا محفوظاً بالسند الصحيح مبرّأ من كل عيب ولحن.

ومن هنا يمكننا القول بأن الصوت القرآني قد وجد حظّه من الاهتمام، متمثّلاً في هذا التراث الضخم الذي بين أيدينا من مؤلّفات علم التجويد ومدوناته.والذي استمال العلماء إلى الصوت القرآني اتساق التراكيب النحوية التي ارتبطت بالإعجاز اللغوي قال فخر الدين الرازي (إن أكثر لطائف القرآن الكريم مودعة في الترتيبات و الروابط)3 وانتشر استعمالها وتقدمت في النطق السليم مع القرآن الكريم وتعدد القراءات القرآنية المتواترة، فتمكنت من التوغّل في الدرس الصوتي، و أن تأخذ مكانها.ونشأ من استيلائها على الاستعمال اهتمام علماء اللغة فأصبحت مادة هامة اكتنفت بطون المؤلفات والمصنفات، واستثمرها اللغويون في ترسيخها، و أكثروا من جذورها و صيغها ليتصل النظام الصوتي بالدرس النحوي فيتعاظم شأنهما لتصبح السلطة اللغوية لهما.

فالدرس الصوتي في القرآن مشحون بالمعاني ذات القيم الجمالية المبنية على معايير تعرضها آليات اللغة عن طريق وصف واسع لها تعطيها دلالات المرادة المفردة منها و المركبة، والدرس النحوي يتعامل مع هذه المعايير بذكر جذوره و إيحائها وصيغها ، وهذا مظهر من مظاهر التفاعل المنطقي بين الصوت والنحو الذي كان يجري على ألسنة العرب.وكان القرآن الكريم أعلى مراتب الكلام،خصّه الله بخصائص جعلته متفردامحتويا العلاقات بين المستويات اللغوية ومنها العلاقة التي تربط بين هذين العلمين.

اهتمّ علماء العربية قديما بالبحث الصوتي في إطار الحقل اللغوي خاصة اللفظ و التركيب فاللفظ يتكوّن من مادة تتكفّل بالأصوات اللغوية، و من هيئة تحدّد شكله و تبرز تصنيفه، أمّا التركيب الذّي يدرس على المستوى اللغوي يعتمد على مراعاة الأصوات. و لم يهمل أهل اللغة الحقائق الصوتية بل وقفوا عندها ليستخرجوا نظاما لغويا موحدا.

بدأت الدراسات الصوتية عند علماء العرب بعمل الخليل170ه(فلم أجد نحويا نمن النحاة الأولين أحسّ بضرورة الدراسة الصوتية لفهم الأسرار غير الخليل بن أحمد و أقواله فيما أملاه على

المنارة للاستشارات

سيبويه و أملاه على الليث بن المظفّر و نقله اللغويون عنه كالأزهري في كتاب تهذيب اللغة، و ابن دريد في كتابه الجمهرة على أنّ له فكرة تحمل الخطوط الكبرى لهذه الدراسة) 4 ولم تكن اللغة العربية عاجزة عن الاستجابة لمتطلبات الدراسة الصوتية.فقد قدّموا تصورا سليما للمستوى النحوي و علاقته بالأصوات، و لم يغب عنهم الفرق بين الظواهر الصوتية .فكان هناك اتّجاه واضح في فهم طبيعة هذه العلاقة، و نظروا إلى تمثيل الجوانب الصوتية في الحقل النحوي.

و لم يكن التشابه أو الاختلاف بين قراءة القرآن عائقا، بل إنّ عملية استخلاص التأليف الصوتي التي خصّها النحاة كانت تركيبية عميقة(فالمستوى الصوتي في دراسة التركيب تقع في مقدمة النحو، وتظلّ في دراسة النحو حاجة إليه)5 فقد تمكّن النحاة أن يبيّنوا مخارج الأصوات وصفاتها ، ويدقّقوا في وصفها بواسطة إدراكهم و استنباطهم لهذا النظام الصوتي .

فقد التقت التغيرات الصوتية بالمستوى النحوي في النص القرآني فوثّق سلامته وأمّنه من اللحن.فوجدت الدراسة النحوية في إطارها الصوتي في القرآن الكريم مادة لغوية ثريّة و هذا لتأصيل البحث الصوتي الذي حفل لدى القدامى بقراءة معمّقة خاصة الخليل الذي كان رائدا لهذه الدراسات فقد عرض لها في مقدّمة كتابه (العين)، وعرف قيمة الدراسة الصوتية للوقوف على حقائق اللغة العربية . فقد جاء كتابه محتويا على مسائل نحوية وقضايا صوتية مرتبطة باللفظ المفرد.كذلك عند سيبويه الذي تناول أهم القضايا الصوتية في التراث اللغويو أدركأهمية الارتباط بين هذين المستويين(إنّ سيبويه كان على وعي تام بأن النظام الصوتي مقدمة لابد منها لدراسة اللغة.)6

و بالمقابل نجد الفراء 207هـ في كتابه معاني القرآن يتجاوز الكلام عن الظواهر الجزئية في إرساء القواعد الكلية في دراسة التركيب اللغوي،ويذلل ما صعب من مسائل النحو، ويبيّن جوانب مهمة في دراسة اللغة. و قد استثمرها الفراء في اختلاف القراءات القرآنية و طبقها عليها لضبط القواعد النحوية مراعاة للتغيرات الصوتية . ولعلّ العودة إلى القوانين الصوتية للاسترشاد بها في تحليل بعض المسائل النحوية تفاعل مع بعض القراءات المتواترة، و من ثمّ تنوّع الأداء القرآني، وتغيرّ الإيقاع للفظ، واستجابة للسياق الذي وردت فيه القراءة.

كما تجلت علاقة المنهج الصوتي بالنحو في ظاهرة الإتباع الذي ألفه القدامى في تأليف الكلمة انطلاقا من الذوق في تجاور الحروف أو تباعدها (فالإتباع ظاهرة صوتية توجبها دواعي المماثلة وهي أنّ الأصوات اللغوية يتأثر قربها في الصفات أو المخارج)7 وقد اشترط النحاة فيه شرط المجاورة ليتحقّق تأثر الصوت بالمجاورة (فإعراب المجاورة كما في جحر ضب خرب ِحيث يتّضح المعنى بقرينة معنوية هي قرينة الصلاحية للإسناد وعدمها)8

و الإتباع يحقّق الانسجام الصوتي حين تتابع الحركات التي يحتاجها لنطق طلبا للخفة، وهي

المنارة للاستشارات

ظاهرة كانت شائعة عند أهل البادية. فالإتباع تكون فيه الحركات الإعرابية مؤثرة و هذا ما تنبّه إليه اللغويون القدامى لأنّه يمثّل تطورا في حركات الكلمة(فالكلمة التي تشتمل على حركات متباينة تميل في تطورها إلى الانسجام بين هذه الحركات ، حتى لا ينتقل اللسان من ضمّ إلى كسر إلى فتح في الحركات المتوالية)9 و يبدو أنّ الإتباع أو التوافق لم يكن شائعا عند كلّ العرب بل في بعض اللهجات التي تميل إلى التوافق بين الحركات، وهذا وفقا للحركة الأصلية في الكلمة حتى تؤثر في الحركة التي تليها لتنقلها إلى جنسها وقبيلة تميم كانت تؤثر الكسرة في قوّة تأثيرها في الضمّ والفتح.

و قد عالج اللغويون الأوائل هذه الظاهرة لكنّهم اختلفوا في تحديد المصطلح، فسيبويه قد ضمّن أبنية الأسماء (و أمّا الدين قالوا مِغيرة ، ومِعين فليس على هذا و لكنّهم اتبعوا الكسرة الكسرة ،ما قالوا :مِنتن و أنبؤك وأجوءك، يريد أجيئك و أنبئك)10

أمّا ابن يعيش643هـ فعدّه ضربا من التشاكل(كان عاصم يفرط في الفتح و حمزة يفرط في الكسر وأحسن ذلك ما كان بين الكسر المفرط و الفتح المفرط والغرض من الإمالة تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل)11واهتمام السابقين بالإتّباع لأنه يساهم في الأداء اللغوي لبعض الأصوات في الكلام العربي الذي يحافظ على الانسجام الصوتي ، و الخفّة في النطق.

إنّ فكرة العلاقة بين الصوت والنحو بحث فيها القدامى، و تعمّقوا في مباحثها لارتباطها بالنص القرآني، ووقفوا على مواطن الإعجاز، كذلك التصدي لظاهرة اللحن. أمّا حديثا فقد ازداد الاهتمام بها لقوة الصلة بينهما فلا قيمة للصوت لم يجر به الاستعمال النحوي، ولا مدلول لنحو إذا لم يقترن بالنظام الصوتي. إنّ العلاقة بين الصوت والنحو شغلت الفكر اللغوي الحديث فاجتهد أصحابه في بيان رأيهم فيها ، فدقّقوا النظر في أقوال القدامى فمنهم من أخذ برأيهم و تأثر به ، وتبنّى فكرة الصلة الطبيعية بينهم وأنّ رفضها ضرب من المستحيل فكتبوا كتبا أثبتوا فيها هذه العلاقة ،و تمسّكوا بما ذهب إليه السلف في هذه المسألة، وكان اتّصالهم بالمنهج العربي القديم وثيقا منهم الحاج عبد الرحمن صالح الجزائري رضي بجهود السلف ، وما توصّلوا إليه من نتائج علمية حذا حذوهم في معظم آرائهم اللغوية . فقد أعاد البحث في الموضوعات التي أفاضوا فيها ، لكنّه تعمّق وأعمل عقله فناقشها مناقشة دقيقة جمع بين الإبداع و التقليد .وتوصّل إلى أنّ العرب اجتهدوا في المجلات اللغوية فدراسة علمائنا للمستويات اللغوية لا يضاهيها في العمق و الدقة الدراسات التي يقوم بها اللغويون ودافع عن آرائهم في مسألة الصوت والنحو و خاصة النظرية الخليلية،فأعجب بها فهو يرى ما لاحظه علماؤنا من مناسبة التلوينات الصوتية و الدرس النحوي أنّ له قيمة تعبيرية موحية. كذلك محمد حماسة الذي كان مهتمّا بهذه المسألة وقد قدّم آراءه فيها و يتّضح ذلك في كتابيه(اللغة العربية معناها و مبناها) فقد تعمّق في فكرة الصّلة الطبيعية بين الصوت و النحو أثبت أنّ هذا التقارب لم يكن عبثا بل هو دلالة قوية (يتوقف إعراب نص ما على وظائف الأصوات ووظائف

المنارة للاستشارات

المباني ووظائف القرائن و نظام العلاقات فلا يفصل في الذهن بين كلّ ذلك إلاّ لأغراض التحليل اللغوي)12.

إنّ الناظر في هذه العلاقة بمختلف إحداثياتها وتنوع تعرجاتها ليلحظ مدى تنوعها ،و سيلحظ أيضاً منهجية مضبوطة وواضحة المعالم يمكن أن يعتمدها القارئ ، ويركن إليها عند النماذج القرآنية. وبما أنّ النص يشكل فسحة رحبة يلتحم فيه هذا التفاعل، وتلتئم فيها المقاصد في إطار التواصل الفعّال .

الصوت و النحو في ضوء نماذج قرآنية

تناول القراء في قراءاتهم جوانب متعددة للظواهر النحوية لها ارتباط بالمستوى الصوتي، فالتمسوا تلك القوة التي تتّصف بها الكلمة أو الجملة في التأليف الصوتي ،ونظام التوزيع في الجملة ، والتركيب المفيد الذي يحتويه الكلام (وهناك بعض الظواهر الصوتية العامة التي يمكن الاعتماد عليها في توجيه الإعراب كذلك،من ذلك ما نطلق عليه الفواصل الصوتية أو ما يمكن أن يشار إليه بالوقفات والسكتات.)13

فعند قوله تعالى: (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَآءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الأنبياء14 (قرأ الجمهور قل بصيغة الأمر، وقرأ حمزة و الكسائي وحفص وخلف قال بصيغة الماضي.)1 فالتنغيم يلائم صيغة الأمر لأنّ السياق يقتضي ذلك ،فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخبر الكفار بإحاطته التامّة بعلمه.

فالقراءة بالأمر ذات قيمة تنغيمية تختلف عن القراءة لو كانت بالأسلوب الإخباري ، ولهذا المقدار النغمي الذي يميّز الأمر ويتناسب مع الأهمية التي تضمنتها الكلمة . فقد استوعب السياق القرآني الطريقة التعبيرية التي تمّ بها بواسطة هذا الفونيم فوق التركيبي.

كما تظهر علاقة النداء بالصوت ،و هذا يعكس شعورا داخليا يترجم في نغمات صوتية، ما جعله يخرج إلى معان أخرى التي تفهم من القرائن بفضل التنغيم. فهناك نماذج قرآنية استعملت تماشيا مع التغيرات التي يعكسها صدى النص، فعند قوله تعالى: (وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) البقرة 286 كلمة (مولانا)تحمل معنى النداء وإدراكه يكون فقط بالأداء الصوتي ، فليس هناك دليل يوحي إلى هذا الأسلوب .

كذلك عند قوله تعالى: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) يوسف 29 النص يحتوي مقطعين الأول يتعلق بيوسف عليه السلام والثاني بامرأة العزيز. فالخطاب الأول يظهر خاليامن أداة النداء ،و لكن التنغيم هو الذي دلّ عليه (يا يوسف) فهو يتضمّن معاني الاستئناس و التحبيب.

المنارة للاستشارات

و عند قوله تعالى: (وَتَوَلَّىَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَأَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) يوسف 84 أسلوب النداء بصيغة الندبة لتنبيه السامع إلى ألم يعقوب و تفجّعه لفقدان ابنه والأصل (يا أسفي الألف مبدلة من ياء المتكلم، والأصل أسفي، ففتحت الفاء و صيرت الياء ألفا ليكون الصوت بها أتم.)15

و من الأساليب التي برزت فيها هذه الظاهرة صيغة التعجب، في القرآن آيات ورد فيها هذا الأسلوب لاحظه القراء خاصة في مواطن تعظيم الأمر الذي يستميل عقل المتلقي، و الذي يجلّيه الصوت بإعطاء المعنى الخفي أهميته في الكلام.

فعند قوله تعالى: (مّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لاٍبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاّ كَذِباً) الكهف 6 الآية فيها معنى التعجب في قوله(كبرت كلمة) فالتلوين الصوتي هو الذي أبان عن هذه الصيغة(و في ذلك معنى التعجب : أي ما أكبرها كلمة)16 و التعجب هنا قول الكفار بأنّ الملائكة بنات الله رغم الأدلة الداعية إلى الهداية فهذا أمر ينشئ التعجب لأنّ الكلمة مبنية على أساس أسلوب التعجب.

ومن أبنية التعجب التي عمل الصوت على إظهارها عن طريق الأداء السليم في القرآن الكريم قوله تعالى :(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ) مريم38 فللتعجب صيغتان قياسيتان أفعل به التي ورد الفعلان (أسمع وأبصر)عليها، وما أفعل.وقد تحمل الكلمتان معنى ما أسمعهم وأبصرهم .

وعند قوله تعالى: (أُولَئِكَ الّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضّلاَلَةَ بِالْهُدَىَ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّارِ) البقرة 175 فالتعجل يعود على المخلوقين كيف يصبرون على مكثهم في النار. فقراءة (ما أصبرهم) بالفونيم الثانوي يفصح عن أسلوب التعجب الموجود في هذه الكلمة ما دامت قد جاءت على صيغة ما أفعل.

ما يلاحظ على هذه الآيات أنّ المستوى الصوتي محور أساسي في تحديد نغمة التعجب من خلال الكلام المنطوق.فهو الذي أظهر التركيب التي يحتوي على هذه الصيغة وعدمها .فالقارئ يتذوّق النص، و يعرف نمط الجملة ،و طريقة تكوينها . فالتعجب له شكله من الناحية الصوتية، و لونه الموسيقي الذي يتطلبه(إنّ لأسلوب التعجب نمطا خاصا من التنغيم ينفرد به و لا يمكن فهمه أو استيعابه على وجهه الصحيح إلا بتحقيق نطقا وأداء.)17

فالتعجب لا يقتصر على المضمون، وإنّما التأثير الذي يحدثه في المستمع، وبعث الإحساس المناسب للموقف من خلال متغيّرات الأداء في إطار المقام التنغيمي للجملة.

كما شملت الأساليب مستويات أخرى وقف عندها القراء منها لام التأكيد و بعدها همزة الوصل عند قوله تعالى: و(لَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاّتّبَعْتُمُ الشّيْطَانَ إِلاّ قَلِيلاً) النساء 83

المنارة للاستشارات

فكلمة (لا تبعتم) رسمت بدون همزة وصل فعندما نحكّم التنغيم في نطق (لا) يرتفع الصوت، ويختفي المصوت الطويل الألف . ولكنّ في موضع آخر في القرآن يختلف الأمر فالصامت الطويل (الألف)يكتب بيد أنّ نطقه غير مجهور قال تعالى قال تعالى: (قال تعالى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) البقرة 256 فكلمة (لا انفصام)كتبت بالمصوت الطويل (الألف)

و عند قوله تعالى: (قَالُوَاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً) البقرة67(قرأها حمزة بالوقف كأنّه يعمل الضمة التي كانت على الزاي في الأصل.) 18

و حذف الفاء كثير في القرآن، وذلك لأنّه جواب يستغني أوله عن آخره بالوقف.فالسكوت في هذه المواطن على الحذف الذي عوّض الأداة مفهومة وعلامته بالنغمة. فقد لجأ القراء إلى الأداء الصوتي في هذا الموقع للحذف ليفسروا به المسائل المتعلقة بالأداة كالفاء والواو كقوله تعالى قال تعالى : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) التوبة 112 حذفت الواو في هذا السياق ، وقد توصّل الفراء إلى قاعدة استثمرها من قراءته لهذه النصوص وتفسيره ما ارتبط بها من قضايا نحوية اقتضاها المنهج الصوتي(فاعرف بما جرى تفسير ما بقي،فإنّه لا يأتي إلا على الذي أنبأك به من الفصول أو الكلام المكتفي يأتي له جواب.)19 فالفراء يتحرى الدقّة لينظّم تفسيره مستقرئا الآيات التي استوفت ظاهرة التنغيم، باحثا عن العلاقة المميزة بالنحو مستنبطا بذوقه النسق الصوتي مظهرا للمعاني القرآنية المتأصّلة.ومما ساعده على ذلك نظرته القويّة في ربط الآية بالأخرى كاشفا القيمة الصوتية للتركيب.

و حذفت النون في الفعل (أخذ)قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)التوبة 103 الأمر أوخذ لكنّها ثقيلة في النطق فجاء حذف الهمزة للخفة . أمّا التعليل الصوتي (فنجّي ينجّي) ، ثمّ دخلت على الفعل المضارع نون دلّت على الجماعة ، فأصبحت (ننجّي) (فالتقت النونان المتحركتان في الفعل المضارع ، مشددة العين، فاستثقل اجتماعهما ، وهما متحركان فمالوا إلى التخفيف من هذا الثقل ،بحذف النون الثانية،طلبا للخفة ، و السهولة واليسر.)20

-حذف ياء المتكلم:حذفت الياء في الفعل و الاسم عند بعض القراء كحمزة والكسائي يغلب التعليل النحوي على الصوتي كما استخلصه أهل اللغة و القراءة

ففي فعل الأمر قال تعالى :(فَلاَ تَخْشَوُاْ النّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً.) المائدة44 بحذف الياء في ([اخشون) (قرأ ابن كثيرو ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بحذف الياءين في الحالين واخشون ولا...) 21لأنّها وقعت في آخر الكلمة ونابت عنها الكسرة، كما أنّ الفعل إذا اتصلت به نون الوقاية حذفت الياء، وهي شبيهة بحذفها في القافية الشعرية قصد التخفيف.

المنارة للاستشارات

فالنظام اللغوي هو الذي يقرّر هذا الحذف،و يميل إليه الاستعمال(لا ينبغي لنا أن نفهم الحذف على معنى أنّ عنصرا كان موجودا في الكلام ثمّ حذف بعد وجوده و لكن المعنى الذي يفهم من كلمة الحذف ينبغي أن يكون هو الفارق بين مقررات النظام وبين مطالب السياق الكلامي الاستعمالي.)22

من الظواهر النحوية التي تصرف فيها النحاة وساقوا المنهج الصوتي لتفسيرها قوله تعالى: (وَالْمُوفُونَبِعَهْدِهِمْإِذَاعَاهَدُواوَالصّابِرِينَفِيالْبَأْسَآءِوالضّرّاء] البقرة 177فكلمة(الصابرين)وردت منصوبة لأنّها صفة على (من آمن)فنصب المعطوف على المرفوع.أمّا إذا قرئت بالرفع فهو العطف على (الموفون).

أمّا التفسير الصوتي لهذه المسألة الخاصة بالصفات في حالة النصب و الرفع فإنّ العرب على هذا المستوى كانت تغيّر النسق بصيغة جديدة في حالة تتابع الأصوات، فيحدث تغيّر صوتي يسير وفق النظام اللغوي لديهم.هذا يدلّ على اعتنائهم بالأصوات (هذا يوضح أنّ العرب تستخدم معالجة الصيغ المتابعة بإحداث تغيير صوتي يقاطع رتابة الأصوات إذا طالت على النسق واحد فإذا كان الاسم رفعا طالت له الصفات ،نصبوا إحداهما للتنبيه على المدح المجدد غير المتبع الأول الكلام . ويجري للذم أيضا وهو إجراء صوتي يتطلب تغيير ا في درجة الصوت.)23

أمّا أثر الصوت في العلامة الإعرابية فنجد النحاة أطالوا البحث فيه، و دخلوا في جدال لضبط بعض الحالات الإعرابية و تأصيلها فعند قوله تعالى: (لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ) النساء 162(قرأ الجمهور كابن كثير والكسائي (والمقيمين) بالنصب إضمار فعلى على تقديره ، وأعني المقيمين الصلاة (على أنّ الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر، وقيل هو العطف على ما أنزل على أنّ المراد بهم الأنبياء والملائكة)24.وقد يكون التقدير أمدح المقيمين .

كما لعب دورا في توجيه الإعراب، وتفسير صوره المختلفة لبعض الظواهر الصوتية، ويطلق عليه بالفواصل الصوتية.فنعد قوله تعالى: (الَمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لّلْمُتَّقِينَ) البقرة1 . 2

(أولا:ذلك الكتاب:جملة مستقلة من مبتدأ وخبر.لا ريب :لا نافية للجنس –ريب اسمها منصوب والخبر محذوف تقديره موجود والجملة اسئنافية مؤكدة .

فيه هدى للمتقين: خبر مقدم، والهدى: مبتدأ مؤخر. المتقين: متعلق بهدى.

ثانيا:التركيب يختلف عن الأول .ذلك الكتاب: يبقى إعرابها ثابتا. لا ريب فيه: لا نافية للجنس واسمها و خبرها و هي إمّا مستأنفة للتأكيد، أو في محل رفع خبر ثان لاسم الإشارة ذلك. هدى للمتقين: هدى :خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو

ثالثا: تكون من آيتين تختلفان عن القراءتين السابقتين ، ويتجلى هذا الاختلاف في إعرابهما

المنارة للاستشارات

ذلك الكتاب:لا ريب فيه.ذلك:مبتدأ و الكتاب بدل أو عطف بيان له، و ريب فيه من لا النافية للجنس و اسمها وخبرها في محل رفع المبتدأ و هو ذلك.

نلاحظ هنا اتّصالا صوتيا بين جزئي الآية (ذلك الكتاب)و (لا ريب)و ذلك –على هذا الاحتمال –لارتباط الكلام بعضه ببعض في المعنى و الإعراب معا، ومن هنا لم يجز لنا أن نضع النقطة (.) بين هذين الجزأين، لأنّ النقطة في وضعها الصحيح إنّما تدل على انتهاء الكلام.و تمام الكلام هنا ليس بأحد هذين الجزأين دون آخر و إنّما تمامه بهما كليهما.)25هذه النماذج تدخل في إطار الصوتي، فهي تختلف وتتنوع بشكل واضح حسب النطق مما يؤدي إلى تغيير المعنى.

لقد كان أثر الإعجاز النحوي في صوت القرآنً جليّا في أثناء المدوّنة اللغويّة بشكل عام، والمدوّنة النحوية بوجه خاص، إذ نبّه النحاة إلى مسائل كثيرة قياسية أولوها اهتماماً، وحظيت بدراسة عميقة، فقد استثمروا نماذج هامة من القرآن الكريم، جاءت مبثوثة في كتب النّحو و اللغة، ، لذا وفّروا لهذه القضايا قواعد مقرّرة.

لم يكن للعرب دراية معمّقة بهذا التفاعل المنطقي بين النظام الصوتي و الدرس النحوي حتى جاء القرآن الكريم الذي طوّره وأورده في سياق دقيق ضمن دائرة البيئة اللغوية المحيطة به.كما أبعد عنه الاضطراب و الزوال فوطّد النطق بها ، وهذّب كيانها. و كان أثره عظيما في ارتفاع شأنها ، فتنبّه علماء اللغة إلى هذا التفاعل ليطوقوه بفصاحة الأسلوب القرآني، ويستخلصوا قواعدهم اللغوية بعد مدارسة القرآن الكريم ، و قد نجحوا في جمع المادة اللغوية منه لتذوب في مؤلفات التي صارت من أعظم المصادر التي يعتمد عليها في تأصيل العلاقة بين الصوت و النحو في بيان المعاني الدقيقة التي يؤديها كلّ علم.

الهوامش:

1 . مهدي مخزومي ، قراءة في الكتاب ، مجلة الكتاب العربي ، 1986،ص78،15

2. كمال بشر،علم الأصوات، ط6 دار المعارف مصر 1986ص24

3. البقاعي(إبراهيم بن أبي بكر)تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي،الدرر في تناسب السور و الآيات ،دار الكتب العلمية بيروت،1415ه ،

4 . مهدي المخزومي ، مدرسة الكوفة،ط2 مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده مصر1958،ص168

5 . كاظم محمد البكّاء، المنهج الصوتي للنحو العربي في معاني القرآن،.مجلة المورد العدد 4جامعة الكوفة العراق 1409ه ، ص101

6. تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، دار الثقافة المغرب 1994، ص 50

7 إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية،مطبعة نهضة مصر القاهرة 1952 م، ص179

8. تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، ص274

9. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية،ط3 مكتبة الأنجلو المصرية 1965 ص86

10. سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر) ، الكتاب، تحقيق:عبد السلام هارون ط3عالم الكتب بيروت ،1983

المنارة للاستشارات

م،4/109.
11. ابن يعيش(ابن علي)، المفصل، تحقيق:عبد السلام هارون ط3عالم الكتب بيروت، 1983م 54/9
12. تمام حسان، اللغة العربية مبناها و معناها، ص185
13. نفس المرجع،ص 23
14- ابن عاشور(محمد الطاهر)، التحرير و التنوير، الدار التونسية 1984م، 15/17
15- العكبري(أبو البقاء)،التبيان في إعراب القرآن، تحقيق:علي محمد البجاوي دار الجيل بيروت ط2، 734/2
16- أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي)،البحر المحيط، تحقيق:علي محمد البجاوي ط6 دار الجيل بيروت695/2
17 . كمال بشر، علم الأصوات، ص546
18الزمخشري(أبو القاسم)،الكشاف،ط1 دار الفكر، 1403ه447/1
19. الفراء(أبو زكارياء يحيى بن زياد) معاني القرآن، ط3 عالم الكتب بيروت 1983م،44/1
20. ابن جني (أبو الفتح عثمان) ، الخصائص ، تحقيق : علي النجار دار الكتاب العربي بيروت، 398/3
21-انظر عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات دار سعد الدين دمشق، 288/2
22-- تمام حسان.اللغة العربية معناها ومبناها.ص298
23- محمد كاظم البكاء.المنهج الصوتي للنحو العربي . مجلة المورد جامعة الكوفة العراق.العدد الرابع ص110
24-أبو حيان،،البحر المحيط، 159/1
25- كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف مصر ط91986م، ص27-28.

المنارة للاستشارات